

المغيّب في خطاب المنفى التاريخي رواية "شبح الكليدوني" للأديب محمد مفلح أنموذجا
Implicit in the discourse of historical exile, the novel "The Ghost of Caledonian" by the writer Muhammad Miflah is an example

نور الهدى روايح^{1*}، سليم سعدي²

²⁻¹ جامعة محمد البشير الإبراهيمي- برج بوعريّج (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 03 مارس 2024 : تاريخ المراجعة : 10 جوان 2024 : تاريخ القبول : 29 أكتوبر 2024

ملخص:

يعد المغيّب في الخطاب المعاصر، وإحياء الذاكرة التاريخية نوعا من الممارسات الخطابية، التي عرفت تحولات ما بعد الحداثة، ونظرا للانفتاح اللغوي الذي فرضته تلك النقلة النوعية في مجال الممارسة الخطابية، أصبح الخطاب لوحة سرّالية تضح بالمتغيرات الدلالية، ليصبح الهامش بديلا للمركز، والمغيّب مفتاحا للواقع، لذلك تنوعت التيمات الثقافية، ليغدو الخطاب مجالا استشفائيا يأمل من خلاله الأديب معالجة الواقع، بعيدا عن تلك الانزياحات الجمالية، لذلك فخطاب المنفى الذي يبدو في ظاهره نقطة عبور بين ترسبات الماضي، يضمّر عبر أنساقه جملة من القضايا التائهة في ضبابية الحاضر.

وعليه تهدف هذه الدراسة للنّش في الدلالات المغيّبة لرواية "شبح الكليدوني" للأديب محمد مفلح، عبر المنهج الفينومينولوجي القائم على قصدية الأديب ووعي المتلقي، وذلك وفق مقدمة وعرض يضم جملة من المتغيرات القائمة على اللقب كمعطى دلالي لصناعة الهوية، والاستنجد بالموت عبر سلطة النص الغائب كخطاب معاكس، وخاتمة تعرض خلاصة صور التغيب النازفة بتاريخ كليدوني، يستلهم روح التراث ليحرر الواقع من قيود الماضي، ويصنع مستقبلا متأملا.

الكلمات المفتاحية: مغيّب؛ دلالة؛ منفى؛ تاريخ؛ واقع؛ رواية.

Abstract:

The absent in discourse and the revival of history is a type of contemporary writing, which deals with reality away from aesthetic images. Therefore, the margin has become instead of the center, and the absent is the key to reality. Therefore, the discourse of exile, which appears to be a return to the past, is an expression of the issues of the present.

this study aims to research the story behind the novel "The Ghost of Caledonian" by the writer Muhammad Muflah, using the phenomenological approach, a summary in an introduction and a presentation that includes the following headings: the title as a semantic given for the manufacture of identity, and the appeal to death through the authority of the absent text as a counter-discourse, and a conclusion that presents the summary of the text of Caledonian history, which relies Heritage to liberate the past and create a hopeful future.

Keywords: implicit; semantics; exile; history; reality; novel.

*Corresponding author: e-mail: nourelhouda.rouabah@univ-bba.dz.

1- مقدمة

تعتمد الرواية العربية المعاصرة على جملة من ميكانزمات الخرق التجريبي لكلاسيكيات الخطاب التقليدي، ما يجعلها نموذجاً ممثلاً لفلسفة التحول الفكري، عبر كسرهما للطبوهات المسكوت عنها، وذلك بالحفر في متون الهامش لمقاضاة المركز، واستنطاق الغائب لتقويض الحاضر، وعبر تلك المقولات تنشطر البراديعم الكبرى التي يأسس على متنها الأديب وفق فينومينولوجيا الضياع والاعتراب السياسي والاجتماعي والايديولوجي... تيمات روائية يحاكي من خلالها واقعه المبتور، فتكون بذلك مهمازا متمردا يلامس عبره الحدود المغيبيّة في متون التاريخ التائه ضمن ترسبات الآخر، وتجعل تلك السياقات الثقافية الكلاسيكية نقطة تحدي للفكر المتحرر من قيود التهميش، ومرويات التعمية الثقافية النسقية، ليغدوا بذلك الخطاب لوحة متمردة، مغامرة قائمة على التجريب واقحام الهوية الفنية ضمن الأساليب الجمالية لمقاضاة الواقع.

وضمن خطاب المنفى الجزائري/ الكليدوني يتخذ الأديب "محمد مفلح" رواية "شبح الكليدوني" سبيلاً لكشف المغيب التاريخي، ويسقط تلك الدلالة على الواقع، في قالب رمزي يحجب الباطن ويتغنى بالظاهر، ويرتكز على جملة من الأنساق السياسية ليضمّر الغائب/ الماضي في الحاضر، فيصبح الخطاب لوحة هيولية، تسائل العمق وتتحاكى أطرافها المتشظية، فيجتمع عبر ذلك الماضي بالحاضر ليولد خطاباً نسقياً، يتجلى في الرحلة التي انتقل عبرها محمد مفلح من الحاضر لمسائلة الماضي، ومن الماضي لاستعادة الحاضر مستنداً إلى جملة من الحقائق المغيبيّة التي لا تظهر إلا بعد الحفر بين مقصديات الأديب، ورواية شبح الكليدوني ليست إلا نسيجا زواج فيه الأديب بين تجربته الحياتية، وتطلعاته المستقبلية في فضاء الموت. وبعيدا عن عناصر البناء الجمالي لبنية الخطاب الذي يبدو في ظاهره تاريخيا، ماهي القيمة الدلالية التي يهدف إليها الخطاب المغيب في مساءلته للمنفى الكليدوني؟

خلف تلك الإشكالية المنتجة للدلالة المغيبيّة في متن الدراسة يمكننا اقتراح الفرضيات التالية:

_ خطاب المنفى الكليدوني يعانق جملة من الأنساق المضمرة، والتيمات الرمزية التي تساهم في استحضار الدلالة المغيبيّة، التي قد تستقطب التاريخ التائه لمعالجة الحاضر المغترب؛ فخلف تلك التقاطعات الرمزية بين أزمنة وشخوص المبنى الكليدوني، يمكن للأديب خرق المستقبل بتجاوزه لترسبات الماضي.

لذلك يهدف مهماز هذه الدراسة للحفر فيما وراء الخطاب التاريخي، لتفكيك مقولات التغييب وتبيان حقائقها المضمرة، وفق جملة من المتغيرات التي تظهر على نحو استخدام اللقب كنسق اجتماعي مضمر يساهم في قتل أو احياء الهوية عند اقتارانه بالوعي واللاوعي، ثم الاستنجد بخطاب الموت كمتغير يترجم نتائج اللا جدوى الذي فرضه الواقع السياسي ضمن الخطاب، وبين تلك المتغيرات يكون تعالق البنى الخطابية سبيلاً لتدعيم دلالة المنفى المتقاطع بين الواقع والتاريخ.

ولعلاج تلك الإشكالية المتمحورة في المتغيرات المعروضة أعلاه اتبعنا الطريقة أو المنهجية التالية: مقدمة، ثم عرضنا لأثر فينومينولوجيا اللقب في تحرير التاريخ المغيب، معانقة الموت لتحرير الحياة في خطاب المنفى، ثم سلطة النص الغائب في بناء خطاب المنفى، وخاتمة تشمل المعطيات الدلالية لخطاب المغيب التاريخي، والمتمثلة في الاستنتاجات التالية:

توجه الأديب لإحياء المغيب التاريخي، ليتخذ المنفى تيمة مشتركة بين تاريخ غائب وحاضر اجتماعي/سياسي مغيب، لذلك قد يكون الهدف في النهاية من الحفر في ذاكرة التاريخ المغيب/المنفي لمعالجة الواقع وللتعبير عن نفيه داخل وطنه ومجتمعه، لذلك قد يكون المنفى خارج الوطن أهون من البقاء بين سجون الوعي في مجتمع يتخذ الاستعباد نظام حياة.

2- فينومينولوجيا اللقب لتحرير التاريخ المغيب:

في خطاب الحياة تتحول معطيات الواقع إلى أنساق إجتماعية تفرضها العادة، فنصبح خلف تلك السياقات عبدة للقوانين الاجتماعية، وبين أنساقها النمطية نرصد عدة تيمات مسيرة لسلوك الإنساني، فنعتقد حينها أننا معطى طبيعي لخدمة المنطق الثقافي، وبين تلك التيمات يظهر اللقب كإشارة دالة على شخصياتها، التي تجعلنا بشرا مستقلين غير أن الدلالة المستبطنة لتلك النسقية الملازمة للفرد منذ ميلاده حتى وفاته، تجعله أسيرا لشخصية الآخر، فقد نكون أسرى لروح أجدادنا عبر أسمائنا، وقد نكون عبدة لتيمة تجعلنا نعاني التهميش خلف تلك التسميات التي فرضها الآخر_فالاسم وإن كان في ظاهره علامة لمعرفة الأنا ظاهريا إلا أنه يعبث بملامح الشخصية وهويتها الداخلية_وقد يتعدى اللقب حدود الهوية الثقافية التي قد يعتز بها حاملها، ليحمل بعدا أيديولوجيا يتفنن المستعمر في رسم دلالاته.

"وخلف ذلك السؤال الأنطولوجي ماذا تفعل بنا أسماؤنا؟ بدل تلك الهالة المحيطة بفكرنا الكاذب يكون ذلك السؤال أجدى من ماذا نفعل بأسمائنا؟" (عطية، صفحة 140) وعلى سبيل تلك الثورات الإسمية تنبجس عدة حقائق مغيبية، لتفصح عن تاريخ تائه تغيب فيه الأنا لخدمة الآخر، فتكون بذلك الحياة لوحة تراجيدية ترسم تلك المفارقات التي تميز بين المركز والهامش/المنفى. ويصبح الاسم معطى ثقافي استعماري يبحث عن السبب ثم الغاية من تلك القيود التي فرضها الآخر.

ففي خطاب المنفى للأديب محمد مفلح يكون اللقب التيمة الفينومينولوجية المولدة للخطاب، والمركز الأول لرسم الدلالة اللغوية. إذ يرسم ملامح الطفل على جسد الرجولة الحاملة بتاريخ معلوم، ينحصر في لقب "المنفى" الذي فرضه المستعمر، ليصبح ذلك الملفوظ الاستعماري دلالة تقيّد مجتمعا، بل تاريخا بأسره، فرغم مرور السنوات يبقى التاريخ عالقا في لقب المنفى الذي شكل مفترق طرق بين طفولة تائهة، ورجولة تائهة/واعدة.

فإذا عدنا لتحليل الدلالة اللغوية وفق الوعي الهوسرلي، فعلينا هنا تتبع مقصدية الكاتب التي حصرت اللغة ضمن لقب يرسم دلالة الخطاب بعيدا عن "عناصر البناء الجمالي للرواية، وإنما اعتمادا على تأويل طروحات ومواقف وشخص الرواية..." (الطبيبي، 2001م، صفحة 135) إذ يشير سارتر في بنائه لنظريته الفينومينولوجية المستوحاة من فلسفة هوسرل أننا "مرغمون على إيجاد حقيقة معينة، وأن نعلم على حقيقة مطلقة، وهي بسيطة جدا تكمن في أن نعي أنفسنا بأنفسنا بعيدا عن أي وساطة خارجية،" (سعيد، 2019/2018م، صفحة 85) فالوعي في النهاية هو المنتج للخطاب بقلم الأديب، ليتقاطع وعي الأديب بوعي المتلقي فينتج دلالة الخطاب لذلك قد يبدو جليا ارتكاز الأديب على عدة شخص، ودلالات لتحليل التاريخ المفقود، إذ تتقاطع تلك الدلالة التي رسمها الأديب محمد مفلح مع نظرية سارتر الغارقة في الغثيان فلعل عمله أو روايته (الغثيان) هي النموذج الذي حدد من خلاله الصيغة التي يتم من خلالها اكتشاف الوجود انطلاقا من القلق والضيق، والألم، فالوجود سينكشف لنا مباشرة من خلال الملل والغثيان، لأن الوجود الإنساني هو وجود متألم صارخ. (سعيد، 2019/2018م، الصفحات 84-85).

تلك النظرة السارترية تغوص في العدم لتجعل الخطاب لوحة متألمة تستنجد الهامش، لتلغي لوحات النسقية القائمة على التعمية، وهي الحقيقة التي انطلق منها محمد مفلح في تحرير خطابه شبح الكليدوني؛ فقد انطلقت من الوعي بالتمهيش وضرورة تحرير الأنا من عبودية التاريخ التائه، واتخذ لقب المنفى كإحالة للتاريخ المبتور، وقسم تلك التيمة إلى قسمين:

- قسم يحفل باللاوعي وحصره في حياة الطفولة.

- وقسم ربطه بالوعي الذي تسلل إلى مستقبل امحمد شعبان المنفي.

فالإنسان على حد تعبير جون لوك يولد صفحة بيضاء وتتكفل الحياة برسم تفاصيل وجوده، لذلك فامحمد شعبان المنفي ولد صفحة خالية من الشوائب، غارقة في اللاوعي، وتكفل لقبه "المنفي" في خلق وعيه بضرورة تحرير الأنا من عبودية الوهم والنكران، وإذا عدنا لفك الدلالة الخطابية من قيود اللغة التائهة بين الوعي واللاوعي، يمكننا ترجمتها على شكل معطيات تكفل اللقب الاستعماري "المنفي" كتيمة واعية برسم دلالتها. ويظهر دور اللقب في توجيه حياة الإنسان عامة وامحمد شعبان المنفي كشخصية ممثلة لدور اللقب في رسم معالم الشخصية على النحو التالي:

1.2- اللقب كمعطى استعماري لنكران الذات:

اتخذ الأديب لقب المنفي وربطه بطفولة محمد شعبان، واقترب تلك الدلالة بطفولته جعلت ذلك اللقب وفق اللاوعي الطفولي، أداة لنكران الذات. يفتتح الأديب خطابه باسترجاع ينقلنا من مستقبل امحمد شعبان المنفي إلى ماضي يتلخص في طفولة تغرق في النكران، فإذا كان الاسترجاع أو الاستذكار تحريك للذاكرة بالعودة

إلى أحداث سابقة، تقتضيها الضرورة لنسج الحبكة الحكائية فتكون ذاكرة للرواية، تستدعيها شخصيات الرواية كذكريات لدعم مستقبل القص، وهذا "يتحايل الراوي على تسلسل الزمن السردى، إذ ينقطع زمن السرد الحاضر ويستدعي الماضي بجميع مراحل ووظيفه في الحاضر السردى." (قريرة، 2016/2017م، صفحة 05) فإن الأديب محمد مفلح اتخذ تلك التقنية الزمنية للغوص في مخيلة بطله، إذ يتيه محمد شعبان في ذلك التاريخ المظلم الذي يجهل معالمه، ولا يدرك غير اللقب الذي يشكل وسمة عارتعاق طفولته "منذ الأيام الأولى لدخوله المدرسة الابتدائية، شعر بثقل لقبه وغرابته، لقب مثير للاهتمام كل من يسمعه لأول مرة. واجه ابتسامات زملائه، بصبر كبير، وتساءل بعضهم عن سر لقب (المنفى) فكان رده سريعاً: "لا أعلم." (مفلح، 2015م، صفحة 06) وبين سداجة اللاوعي، ونكران الأنا "طلب وقت ذاك من والده الحاج عبد القوي أن يغير هذا اللقب الغريب، فربت على هذا الأخير على كتفه الهزيلة قائلاً له بهدوء الرجل المجرب: انتظر قليلاً وستتعرف على أسرار هذا اللقب المجيد، إنه لجدي الذي نفى إلى كاليدونيا الجديدة، وهل سمعت بهذه الجزيرة؟ لا أعتقد وزارة التعليم لن تدرسكم عنها، نسيت جراح المنفيين في العهد الكولونيالي، فانتظر حتى تكبر يا بني." (مفلح، 2015م، صفحة 06) ليكون بذلك التاريخ الكاليدوني حقيقة مغيبّة رسمها المستعمر، وأيدها الصمت السياسي الجزائري، فوفق تلك الايحاءات اللغوية يحاول الأديب عن طريق الطفل الواعد النبش في خصوصيات التاريخ المغيب بيد المستعمر ثم القوالب السياسية الجاهزة التي رسمها الوطن.

وبين الوعي بدلالة اللقب الذي كان يصنعه "معلمه الأول، بصافي المايدي، يحثه على الاجتهاد في دروسه ويقول له أمام كل تلاميذ القسم، بأنه من عائلة المنفى العريقة في العلم والتصوف والفروسية" (مفلح، 2015م، صفحة 06) ونكران الذات التي كان يرسمها لا وعيه الطفولي "بالرغم من ذلك الكلام الطيب، إلا أنه ظل حائراً أمام لقبه المثير، وصار سجين التساؤل المحير الذي دفعه إلى عالم الغربة، وجعله ينتظر من يضيء له جراح هذا الماضي الغامض. أه.. من تلك الجراح!" (مفلح، 2015م، صفحة 07) وخلف تلك التساؤلات الغارقة في بين الوعي واللاوعي تكبر فيه هوة الاسم الذي "أرشده إلى بعض الحقائق المغيبّة في التاريخ الوطني" (مفلح، 2015م، الصفحات 06-07) فينتقل عبر الزمن، وبين حفريات اللقب يكبر محمد شعبان المنفى فتتحول دلالة اللقب من نكران طفولي لهوية ضائعة، إلى التغني بها والاحتفاء بذلك اللقب الذي يمثل تاريخاً عريقاً، ينتقل عبره لاستعادة الأنا، لتكون بذلك الطفولة التائهة في ظلمات اللاوعي أداة لتحريك دلالة اللقب. ويتمثل ذلك الوعي بدلالة اللقب في:

2.2- اللقب كمعطى استعماري لاستعادة الأنا:

في خطاب المنفى لمحمد مفلح يكون "المنفى" معطى رمزي يحيل إلى تاريخ مفقود يستنجد به امحمد شعبان المنفى للهروب إلى تاريخه المغيب فجده "امحمد المنفى المنحدر من سيدي امحمد الراجي الشريف النسب" (مفلح، 2015م، صفحة 13) نفى إلى جزر كاليدونيا، غير أن الأديب يستقطب تلك الدلالة للتعبير عن واقع

سياسي يكون فيه الوطن منفي، ولا تناسب شخصياتها سوى لقب المنفي، لذلك فالأديب استعمل تلك التيمة للدلالة على الاغتراب الذي يعيشه الفرد، فيسعى للماضي هروبا من الحاضر الغريب البائس، الذي يحاول نفي الهوية عبر قالب رمزي، فيشعر الفرد بالضيق ويعيش المنفى في وطن الحرية والديمقراطية كخدعة سياسية لاجترار الوطن.

يستهل الأديب خطابه بسؤال فلسفي يتجاوز من خلاله عتبة اللاوعي، فيدخل عوالم البحث عن الأنا من خلال تلك الصور التي رسمتها ضبابية الطفولة التائهة في لقب منفي، يترجم تاريخا مغيبا، وعبر تلك المقولة "أين قبر هذا الشيخ المنفي الذي أورث عائلته هذا اللقب العجيب؟" (مفلاح، 2015م، صفحة 07) يدخل غمار مساءلة التاريخ، ذلك التاريخ المظلم الذي راح يطارده كشبح يرتدي وشاح الماضي، ويغوص في قلق الواقع الرهيب، فامحمد شعبان مقيد بلقب استعاري يحيل إلى ضرورة الهروب إلى قدره المحتوم، والبحث عن تاريخه التائه، غير أن الواقع كان يفرض عليه الموت فلا الهروب ولا البقاء أجدى، فيتوجه امحمد شعبان خلف ذلك للاستنجد بلقبه الغامض ويتخذ شعارا للحاضر بعيدا عن الماضي الذي يعد ضرورة حتمية، فالأديب محمد مفلاح بعيدا عن بطله امحمد شعبان المنفي، يحاول خلف لقب المنفي ترجمة الواقع الاجتماعي، واقع يتغنى بالمنفى. فعلى لسان محمد شعبان "لازمته مشاعر الغرب منذ العشرية السوداء كما يسميها رجال السياسة، بعدما كانت حمراء، وستتغير بعد حين إلى رمادية، ولم لا تصير بيضاء؟" (مفلاح، 2015م، صفحة 13) وبين تقلبات الألوان بين عشرية سوداء، وثورة حمراء، وواقع رمادي مجهول يحلم بمستقبل أبيض ينبض بالحرية، يصبح الواقع السياسي مزريا، لا سبيل له غير المنفي، للبحث عن الحرية في روح أجدادنا.

يتخذ الأديب لقب المنفي ليرسم عدة دلالات اجتماعية مضمرة خلف القوالب السياسية، التي كان لها أثر في قولبة المجتمع الجزائري، فرغبة امحمد شعبان في البحث عن تاريخه المغيب ظلت تلازمه طيلة حياته، وانتفاضته لمساءلة التاريخ فجرها الظلم السياسي الذي يحفل بالأنا مقابل تغيب الآخر، ففي قالب مضمهر عرض لعدة قضايا مسكوت عنها، تتلخص في لقب المنفي، وفي ذلك إحالة للمنفى الاجتماعي الجزائري، فامحمد شعبان شاب كغيره من الشباب يعيش في "عمارة منهكة بهموم سكانها الحاملين بحياة كريمة في شق آمنه نظيفة" (مفلاح، 2015م، صفحة 13) وكغيره من المجتمع الجزائري شاب "أعزب وهذا ما يقلق والدته... كان صديقه المغتال يحدثه كثيرا عن الفلاسفة والكتاب العزاب.. نيتشه، وسارتر، وجمال الدين، وعبد الرحمان بدوي، والعقاد... هو من حبيب إليه حياة العزوبية"، (مفلاح، 2015م، صفحة 14) الملجأ الوحيد لشباب يعيش "أيامه الرتيبة في مجتمع ساكن لا يفكر في أي عمل مبدع". (مفلاح، 2015م، صفحة 14).

وفي عالم يضج بالضيق والغربة، والخوف من المجهول والهروب نحو الماضي خوفا من المستقبل العنيف، يلجأ إلى "الغرفة الضيقة، يخفي غربته القاتلة عن أهله ومعارفه محتضنا مخاوفه ووسواسه. تمنى مرار لو كان نسيا منسيا. فكر ذات يوم أن يرمي بنفسه من النافذة ليتخلص من هواجسه المرعبة، ورغم تدمره القاتل من

واقعه فقد ظل متشبثاً بالحياة." (مفلاح، 2015م، صفحة 14) ذلك الوهم والتشتت الذي صوّره الأديب عبر شخصية امحمد شعبان قد يكون حالة ملازمة للمجتمع الجزائري، فبينما يفكر المواطن أو يمكننا القول اللاجئ الجزائري في تأمين سبيل للعيش في وطن المنفى أو "مستقبل لا يعلمه إلا الله؟" (مفلاح، 2015م، صفحة 10) يفكر الآخر في التضييق أكثر، ف خلف لعبة الانتخابات تستنطق عدة برامج انتحارية، فلا يتجاوز المنفى في ذلك حدود الزواج والسكن، كما تنتظر عائلة امحمد شعبان المنفى الرحيل "ينتظرون يوم ترحيلهم إلى حي برمادية" (مفلاح، 2015م، صفحة 09) " فقد أخبرهم حمو منجل بهذا القرار التاريخي حسب قوله، راجيا مساندتهم له في الانتخابات القادمة، فهو منهم ومن أبناء حي الربوة، ولأزال إلى حد الآن يسكن فيلا من ثلاثة طوابق محاذية لحي ديار الورد." (مفلاح، 2015م، الصفحات 10-11).

وبين تلك الوعود الرمادية يتابع المقاول "الحاج سليمان الغشبي قضية هدم البناية باهتمام كبير... بعدما تحصل على وعد بالبيع من ديوان السكن... لأنه سيبنى مكان البناية المهدامة عيادة طبية لأمراض القلب" (مفلاح، 2015م، صفحة 11) النفسي لا العضوي الناجم عن الجشع والنفاق والانتهازية، التي جعلت الحرية شعارا لقتل الأنا وبناء الآخر، ففي مجتمع يعالج الأمراض العضوية، ويستهن بألم النفوس، سيكون حتما المنفى اللقب المناسب للمجتمع في وطن الاغتراب، وهذا ما جعل محمد شعبان يلخص الوضع في جملة ترسم يأسه في قوله "كثرت أمراض القلوب والنفوس." (مفلاح، 2015م، صفحة 11).

لقد لخص محمد مفلاح المجتمع الجزائري في لفظة "المنفى" وحصر الفجوة الزمنية للدلالة بين استرجاع للطفولة ثم مثول للزمن الحاضر؛ زمن الاغتراب، فإذا كان المدى هو "المجال الفاصل بين نقطة توقف وانقطاع السرد وبداية الأحداث المسترجعة أو المستبقة." (قريرة، 2016/2017م، صفحة 05) فإن الأديب حسب قياس جبرار جنيث للمدى والاتساع الزمني قد لخص اغترابه في فترة قد تطول ثلاثة وأربعون سنة من العذاب، أي منذ ميلاد محمد شعبان المنفى عام 1972م، إلى تاريخ نشر العمل، فقد حاول الأديب عبر ذلك الصرح الأدبي الصاخر، المتألم. واستنادا إلى رأي حسن بحراوي الذي عارض جبرار جنيث "بتقديم رأي بديل في اعتبار السعة كمية نصية تشغلها المفارقة، أي تقاس السعة بالسطور والفقرات والصفحات." (قريرة، 2016/2017م، صفحة 05) حصر النظام الاجتماعي الجزائري في 121 صفحة، لخص من خلالها الحقائق المغيبة التي فرضها المنطق السياسي، وبين ميلاد ووفاة يعيش المنفى الجزائري الموت بين أكفان الحياة. "وبين اللقب الغريب والعمارة المتأكلة، نما قلقه الرهيب، صار يمتنى لو لم يقذفه القدر في هذه الحياة المفزعة." (مفلاح، 2015م، صفحة 07) وتلك هي أقصى عقوبات المجتمع السياسي أن يكون حلم مواطنها سكن، وعمل. ثم أقصى عقوبات القدر، أن يكون الموت حلما ملازما للحياة. أن تعيش الحياة متأملا الموت بين أيام رتيبة ترسم سكراته بعد نوم تخالطه الكوابيس.

بين تلك الدلالات المتنوعة التي رسمها لقب المنفى يصبح المنفى الكليدوني الهدف الوحيد، لفارقة دوامة الفزع السياسي الذي يعيشه الجزائري يوما عن يوم، لذلك يحاول مرارا اللجوء إلى الماضي خوفا من المستقبل، الذي يضيق يوما عن يوم، وبين أسوار الموت يجد متكأ يناجي من خلاله الحرية من لقب صار ملازما له، لذلك يتوجه محمد مفلح لاستنطاق تيمة أخرى قد تكون سبيلا لمغادرة تلك الذاكرة العالقة في المستقبل، وتتمثل تلك التيمة الانتحارية في وطن المنفى على شكل موت يعانقه محمد مفلح على لسان امحمد شعبان المنفى، ليرسم أيامه.

3- معانقة الموت لتحرير الحياة في خطاب المنفى:

في خطاب المنفى الذي يتجاوز تلك الدلالة الأولى _ المنفيين إلى جزر كاليدونيا_ التي اتخذها الأديب حجابا لمجابهة الواقع السياسي، وقناعا لستر الدلالة المسكوت عنها، يكون الموت الشعار الملازم للمنفي الجزائري، فقد رسم الأديب المعاناة التي يعيشها المواطن، خلف تلك النظم السياسية، التي تجعل الموت حلم مجتمع إذا خالطه الوعي، فخلف تلك التيمة يتقاطع المنفى الاستعماري الخارجي، بالمنفى السياسي الداخلي، فإذا كان المنفى الكليدوني يعاني الوحدة بين تلك الجزر النائية، فإن المنفى الجزائري يعاني الضياع، والعدم، والموت، والمنفى بين قدره السياسي المحتوم الذي يجعل الموت "ملجؤه الوحيد الذي يحميه، من عالم غامض بدد فيه كل أحلامه الساذجة ومشاريعه الوهمية، عالم احتلته هواجس مرعبة دفعته مرات للتفكير في الانتحار، آه يا زمن الهم والغم!! وخنق كل خواطره. عجز عن فهم ما يدور في خلده، آه.. كم تمنى لو تجرّفه، وفي غفلة منه أمواج الدوامة الهوجاء نحو المقبرة حيث يرقد المسلمون بعيدا عن ضجيج الحياة الفارغة." (مفلح، 2015م، صفحة 17) ففي عالم مغلف بالديمقراطية الساخرة يصبح الإنسان عدما، تبدد عبر عوالمه جل أحلامه ويصبح مجرد آلة لخدمة الآخر، فلا سبيل لاستعادة الأنا الغارقة في جسد مرهون سوى الموت.

بين تلك التفاصيل السردية الغارقة في الضياع تأثت المقبرة أمكنة الحكيم، فلا يكاد ينفك عن ذكرها كلما عرض لتفاصيل شخصياته، فامحمد شعبان المنفى ليس إلا إسقاطا للواقع بين سطور الخطاب، وبين تراب المقابر لا تنفك الحاجة صفية بنت شعبان البايك، والدة امحمد شعبان عن الترنم بالموت، وإن كانت ترغب في الحياة إلا أن الموت صار هاجسا ملازما للاوعي في خطاب المنفى، "نطقنا الحاجة صفية بنت شعبان البايك بهاته العبارة وهي تحدث جارتها كلثوم الوادية عن رغبتها في البقاء بشقتها المطللة من جهة اليمين على المقبرة التي تحتضن قبور والديها وجل أقاربها، صارت ترجوا الله في كل وقت أن تدفن في المقبرة نفسها. إنها تخشى أن تموت في الحي الجديد وتدفن في مقبرة برمادية بعيدة عن قبور أهلها." (مفلح، 2015م، الصفحات 09-10) فأقصى نعم الشقاء في وطن المنفى أن يدفن المرء بعيدا عن أهله، فخلف تلك الخدع السياسية يصبح همك الوحيد الموت، كيف تموت! وأين تموت! ومتى تموت! فلا تعيش الحياة، ولا تنعم بالموت، وحتى بين سكرات الموت تفكر وتحلم في قبر يجمعك بأحلامك فقط.

لذلك تفنن الأديب في رسم صور الموت على ألسنة شخصياته، وصوّره حسب الغاية التي يهدف إليها كل فرد، ليكون الوعي بضرورة الموت أهداف من "المشاركة في مجالس الشبان البطالين الذين وجدوا في جدار العمارة الخامسة مكانا لقضاء وقت طويل في الحديث عن أخبار رجال الحكومة والبلدية، وفي الفرق الرياضية لكرة القدم وبخاصة الفريق الوطني الذي أسعدهم كثيرا تميزه في كأس العالم... في انتظار فرح جنوني آخر يشبه انتصار "أم درمان" (مفلاح، 2015م، صفحة 16) يفسح للحديث السياسي مجالا لاستغلال تلك العقول الضائعة بين فوزى كرة القدم، وقضايا أخرى من ذلك القبيل، ليصبح عالم الغباء والسخرية موجعا أكثر ولا سبيل لتجاوز ذلك الوعي بالغربة، والمنفى سوى الموت الذي رآه الأديب ملجأ لخنق وعيه، بيد امحمد شعبان المنفي.

ليكون بذلك خطاب المنفى جرعة مداواة الأنا ولو بكلمات تحرر الضيق الذي يشعر به الأديب، فشبح الكليدوني ليس إلا شبحا يداهمه، ويستفزه ويروي له قصة سياسية مغفلة، فقد كان ولا زال ثائرا على مجتمعه البائس، التائه في غربة اللاوعي، "لا شيء تغيّر فيه. لا زال كما كان أو هكذا صار يعتقد، فهو يتصرف كذاك الطفل الخجول التائه الذي كانه" (مفلاح، 2015م، صفحة 05) ولا زال يتبع تلك التمويهات التي قذفت به في متون الغباء الذي صنع منه صنما بين أساطير التاريخ السياسي.

وبين تلك التفاصيل اللغوية المحررة لدلالة الخطاب، يستقطب الأديب نصوصا غائبة، تائهة في التراث الجزائري ليكثف الدلالة، فيصبح المنفى معطى يتجاوز اللغة، ويستبين جذوره عبر التراث ويظهر ذلك على نحو:

4- سلطة النص الغائب في بناء خطاب المنفى:

في خطاب ما بعد الحداثة يصبح المنجز الأدبي لوحة تجريبية تستقطب مجريات العصر بتقلباته، سواء على مستوى البناء أو المتن الحكائي، وضمن تلك التداخلات يصبح الماضي بسياقه الثقافي، والاجتماعي جوهر لغويا يقلب الخطاب بأيادي الحداثة، لذلك فخطاب المعاصرة لا يكاد يخلو من التراث، لكن بشكل تجريبي يجعله لوحة متمردة، تهمل من التراث وتحوله لصالحها، بما يخدم سياقها الفكري، فاستلهم النصوص الغائبة في متون الخطابات المعاصرة لا يكاد يكون مجازفة حدائية، وإنما جرى استخدامه في نصوص التراث على شكل اقتباسات، وسرقات أدبية، وانتحالات، وتقاطعات... اختلفت تسمياتها حسب طبيعة التداخل النصي، أما الاستعانة به في خطاب ما بعد الحداثة فيعد مقتضى ضروري توجيه الكتابة، وتكمن الفروق بين الاستعمال التقليدي والحداثي لتلك الدلالة، في طبيعة المصطلح والتسمية "فالنص الغائب مصطلح نقدي جديد ظهر مع الاتجاهات التي حاولت القبض على ارهاصاته في النص... ويعد النص الغائب مكونا رئيسيا للنص الحاضر على اعتبار أنه لم ينشأ من العدم، بل تداخلت فيه مكونات أدبية وثقافية متنوعة، اندمجت كل هذه النصوص في بناء عطائه." (شريف، 2023م، صفحة 03)

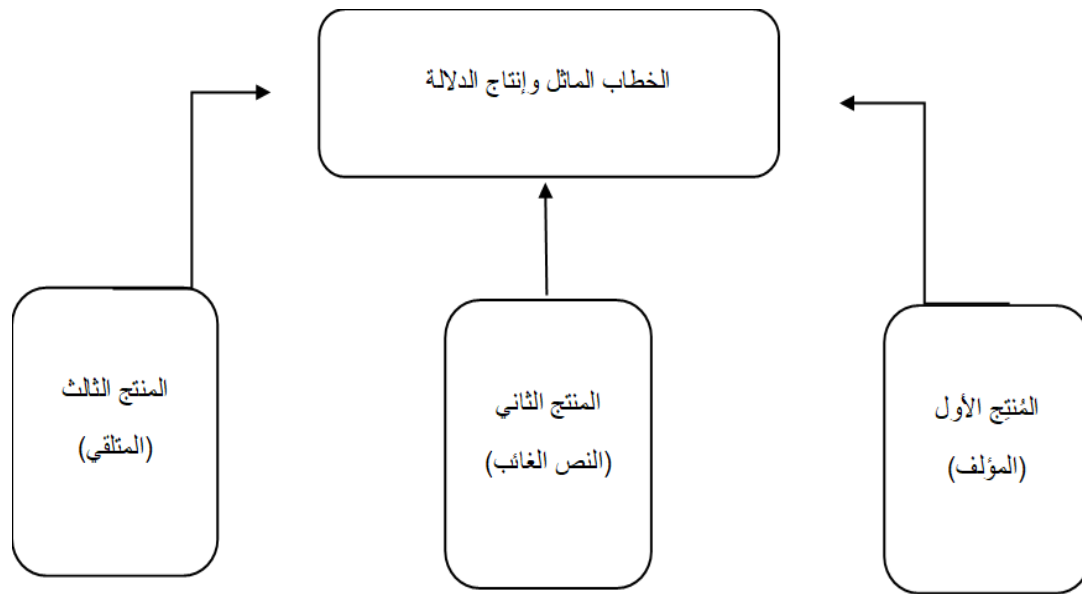
تتوجه المنجزات الأدبية لما بعد الحداثة لاستلهاام جملة من النصوص الغائبة، أو المتفاعلات النصية لبناء دلالتها، فيصبح الخطاب لوحة تفاعلية تنسج خيوطها عبر تلك التداخلات الثقافية، وتختلف مستويات التقاطع النصوي "من كاتب إلى آخر؛ نجد منها الجزئي والكلي والتلمحي بيد أن حضور النص لا يكتمل إلا باكتشاف ملامح الغياب فيه وإخراجها من السكون إلى الحركية لتؤدي وظيفتها الدلالية، ذلك أن خاصية الحضور والغياب لا يكاد يخلو منها عمل أدب؛ ليغدو النص أكثر عمقا ودلالة." (شريف، 2023م، صفحة 05) غير أن المبدع الأدبي في تدويره للنص الغائب، وتبنيه كمرجع دلالي لخدمة دلالة مستحدثة يصبغه بعدة رتوشات تجعله بناء مضمرا، قد يصعب أحيانا على القارئ استبيان نقاط تقاطعه مع النص المائل.

إن تلك التقاطعات الدلالية أو اللغوية بين النصوص الغائبة والمائلة، أو حلول الغائب في الحاضر "لا ينفي جودته، ولا يطمس بصماته الجمالية الخاصة به، بل على العكس من ذلك يعطيه دفعا جديدا مليئا بالعطاء لقراءات مستمرة بلا انقطاع، ويساند ما ذكرناه من مضمون ما قاله كروتشه من أن أي نص له تشكله القار به، وأن جماله الخاص به مستكن في هذا التشكيل في صورته الكلية، ومن ثم فأى بتر أو إضافة أو تحويل أو تبديل إنما سينتج من ورائه شكل آخر، ومن ثم لا يجوز حسب كروتشه مقارنة نص أو موازنة عمل بعمل" (شريف، 2023م، صفحة 05) فلكل عمل إبداعي خصوصياته وإن بدا في أحد جوانبه مرتكزا على عمل آخر.

في خطاب محمد مفلح "شبح الكليدوني" تظهر سلطة النص الغائب* في بناء دلالة المنفى، إذ يركز في تشييد خطاب المنفى السياسي/ الكليدوني على جملة من النصوص الغائبة، لبناء سياق خطابي خاص، تتنوع بين أغاني شعبية ورسائل تراثية، توحى برغبته الملحة في الهروب إلى الماضي، والاستنجد بتلك التداخلات الدلالية لتحرير ضيقه من ضغوطات الحاضر المريب. إذ "تعد التفاعلات بين النصوص عملية تفجيرية تفتح الحاضر على الماضي والابداع الجديد على الموروث والتقاليد، وتفتح المجال بين الحقيقة والخيال... ويصبح التناس قيمة تعبيرية عالية، تضع الابداع في حركة دائمة ومستمرة منتجة دلالات فنية متجددة على الدوام." (شريف، 2023م، صفحة 186).

وبين فينومينولوجيا توليد الدلالة ينتج الأديب نصا مقصديا، فيتوجه المتلقي لتفعيل وعيه عبر تلك الرموز الدلالية المغيبة، فينتج عبر تلك التفاعلات الفينومينولوجية نصا يهزم لمعالجة الواقع، وفق تلك التقاطعات الدلالية بين المؤلف والمتلقي، لتكون العملية الإبداعية أو الدلالة "نتاج معادلة ذات ثلاثة أطراف يمثلها المؤلف، والنصوص الغائبة، والقارئ." (شريف، 2023م، صفحة 186).

* - العنوان مأخوذ من كتاب سلطة النص الغائب لسعاد شريف.



وفي خضم إنتاج دلالة النص المائل؛ خطاب المنفى الرمزي الكليدوني يعمد محمد مفلح استقطاب تلك التداخلات النصية كشواهد لخدمة تلك الصيغة الثقافية المعاصرة، ويظهر ذلك في خلخلة البنية السردية برسائل الشيخ محمد المنفي، التي ظل والد امحمد شعبان المنفي محافظا عليها كتاريخ مغيب حان حاضر النبش فيه، لمواجهة مستقبل يحفل بالجنون يقول الحاج عبد القوي مخاطبا ابنه محمد شعبان "لقد حدثتك عن جدي الشيخ امحمد المنفي، واليوم أريدك أن تطلع على رسائله التي لا تقدر بثمن... ثم بلهجة الخائف من المستقبل: حان الوقت للبحث عن الحقيقة، اهتم قليلا بأجدادك الصناديد. التفت إلى ماضيهم المجيد نحن كنا خير خلف لخير سلف أما أنتم؟ أخشى أن تغرقوا في مستنقع هذا الزمن المجنون" (مفلح، 2015م، صفحة 30) وبين خطاب يمزج بين روح الماضي وهلع الحاضر ينتقل الأديب وفق تلك الحوارات، التي تتخذ الرسائل ثم البحث في التاريخ سبيلا لكشف ألعايب الحاضر، فرغبته في مكاشفة الماضي، ليس إلا خوفا من مستقبل ضبابي، يجد في روح أجداده سبيلا لحرية مفقودة في المستقبل.

يعرض الأديب لتلك الرسائل الثلاث التي قدمها عبد القوي لابنه امحمد شعبان في قالب يمزج الحقيقة بالخيال، ويسرد تفاصيل رحلة المنفى "التي ضمت أكثر من 400 شخص من فليطة، وبني وراغ، وسهل الشلف، وجبال الظهرة، ويسرد مجريات أيامه كيف تم لهم بناء مسجد داخل أسوار السجن مع إخوانهم الكناك، ثم يسرد وقائع الثورة التي قادها الكناك سكان الجزيرة، ضد الفرنسيين بمساعدة الجزائريين في جزر المنفى، وبين تلك التفاصيل يعرض لقصة هروبه مع مسعود الزباني، وقويدر الزيدي والزين رحوية في سفينة انقليزية تحمل الزيت إلى مدينة سيدني، وعبر مدينة سيدني بأستراليا يتوجه إلى جدة بالحجاز لزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة." (ينظر: مفلح، 2015م، الصفحات 37-41) تلك هي فحوى الرسائل التي عرض لها الأديب في قالب رسائي، يجعله خطابا دخيلا يميزه عن السرد الروائي.

وعبر تلك التجاوزات الخطابية، واختراق الماضي للحاضر اللغوي بيد تراثية يعرض الأديب كذلك لجملة من الأغاني الشعبية، ومن بينها أغاني "الشيخ عبد القادر بوراس" التي تسرد تفاصيل الألم الذي رسمته أراضي المنفى، فلما سمع بصافي المايدي "امحمد شعبان يتحدث عن المنفيين إلى كاليدونيا الجديدة وكورسيكا وكيان، حثه على الاستماع إلى قصيدة "بي ضاق المور"، وكانت المفاجأة. اكتشف ما كان يرغب فيه:

لو كان بكيت بطل تلقى في صهد الجمهور بي ضاق المور هما عز المضيوم يوكدوا في اليوم المعتاد
لو كان بكيت بطل نعة اللي محقور بي ضاق المور يمشوا عنفية قبالة العدو واللي حساد
لو كان بكيت بطل ظلما بسلاح تجور بي ضاق المور وبع اللي عداهم شربوه كيوس التنكاد
لو كان بكيت بطل رقدوهم في بابور بي ضاق المور راهم شق البحور دارقين وخبرهم ينعاد
راهم مسجونين في جزيرة في وسط بحور بي ضاق المور عليهم الباب والقفل معمد تعما
عيطه ناس مسلسلين يتمشوا بالكور بي ضاق المور جيش الروم معذبهم من بكري حقاد.

(مفلاح، 2015م، الصفحات 42-43)

وعبر ذلك "الفيض الدلالي، اللغوي بكل محمولاته العاطفية، وشحناته البيئية، وفق ما تمليه مخيلة المبدع وذاكرته..." (فيدوح، صفحة 19) ينتج خطاب شبح الكليدوني ليستثمر تلك التراكمات الدلالية، ليسائل الماضي خوفا من الحاضر الحافل بالموت، أو الهجرة. فمن خلال خطاب المنفى والبحث عن ذلك التاريخ المغيب، نلمح أن الأديب اتخذ تيمة المنفى ليعبر عن نفيه داخل وطنه ومجتمعه، لذلك قد يكون المنفى خارج الوطن أهون من البقاء بين سجون الوعي في مجتمع يتخذ الاستعباد نظام حياة.

يتوجه محمد مفلاح بلسان امحمد شعبان المنفي إلى اتخاذ المنفى سبيلا لاسترداد الأنا فقد "أصبحنا منفيين في عمارة يتيمة... وسنظل منفيين بعد ترحيلنا." (مفلاح، 2015م، صفحة 34) وفي قالب لغوي يائس فضل امحمد شعبان الرحيل إلى موطن المنفيين، بدل البقاء في وطن المنفى، الذي يجعلك آلة تستفيق من النوم لتنام مجددا، فبين صرخة الولادة ومقبرة تفتح يديها ينقضي العمر في الجري وراء وظيفة وسكن، وذلك محور الحديث الذي استنزف عبره محمد مفلاح قلمه، ليجعل السفر إنصاتا "إلى صوت قلبه المضطرب الذي ظل يحدثه منذ سنوات بالسفر في هذا الكون الفسيح. اليوم تغير، تحرر، وها هو يقرر التحدي. حان وقت السفر الطويل إلى الجزيرة التي سكنها أبناء العهد الجريح." (مفلاح، 2015م، صفحة 121) هكذا يختم محمد مفلاح صرحه اللغوي الشائك، فيتخذ تيمة المنفى كقاسم مشترك يجمع بين منفى الذاكرة ومنفى الحاضر، فقد استلهم الأديب روح الذاكرة المنفية ليعبر من خلالها عن المنفى الذي يعيشه المجتمع الجزائري،

5- الخلاصة:

من خلال ما سبق يتضح أن شبح الكليدوني عنوان يقترب بتيمة المنفى ويجعلها مفتاحاً لفك مغاليقه، تظهر على شكل مغيب تاريخي يغوص في الذاكرة ليحرر المستقبل، فمن خلال ذلك القالب اللغوي لمحمد مفلح يتضح جلياً طغيان النسق التاريخي الغارق في المنفى، في حين يبقى النسق الروحي المتخيل الذي يدعوا إلى ضرورة البحث عن الأنا التائهة، في منفى الآخر السياسي نسقا مخاتلاً، يغيب تارة ليظهر خلف الكلمات التي كان يعرض لها الأديب في قالب رمزي، فهو بذلك يخاطب الوعي ليصنع تجربة فينومينولوجية تربط بين المؤلف والمتلقي، عبر خطاب تنسجه سلطة نصوص أخرى تغذي دلالاته.

ففي خطاب المنفى يتخذ الأديب لقب "المنفى" وفق فينومينولوجيا الألقاب، ليفسر دور الوعي في صناعة الذات، والبحث عن الأنا، فاقتران ذلك اللقب بلاوعي الطفولة يجعله يستنكر لذاته وللقبه، وبين حفريات الوعي يصبح اللقب أداة لاسترداد الأنا، فلكل لقب تاريخ يحيل إلى حقيقة معينة، ولقب المنفى يحمل دلالتين دلالة تاريخية اتخذها الأديب مرجعاً لتحرير دلالة تترجم الواقع السياسي الجزائري، ليصبح المواطن بين سياقها الدلالي منفيًا داخل وطنه، تلك الدلالة حتما ستكون سبيلاً لتوليد خطاب معارض لذلك توجه الأديب لخلق خطاب الموت فلا سبيل للهروب من المنفى سوى الموت، ليصبح الخطاب عبر تلك الدلالة لوحة تراجيدية، وصورة صارخة لمجتمع يتجرع الألم.

يربط الأديب بين تلك الصور الواقعية النازفة بتاريخ كليدوني، يستلهم عبره روح التراث فيصنع بذلك الخطاب لوحة متحركة عبر الزمن، من خلال تلك التفاعلات النصية، بين أغاني شعبية ورسائل تاريخية، تجعله صورة للحاضر الغارق الماضي للبحث عن سبيل يحرره من مخاوف المستقبل.

تلك هي نتائج البحث الذي نأمل أن يكون سبيلاً لاستنطاق المغيب في النصوص السردية المعاصرة، فهناك العديد من القضايا الغارقة في التهميش والتغيب والنكران كالخطاب النسوي التائه في ظلمات الذكورة، وخطاب الجندرية العربية الذي ساهم في تغييب أرواح، قد يكون العبور الجنسي أحد المحاور التي نادى بها الرواية الجندرية العربية كعنوان لقتل وتغيب أرواح بشرية.

6- المصادر والمراجع:

1. حمزة قريرة. (2017/2016م). قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح. السرديات العربية. ورقلة، الجزائر.
2. خديجة سعدي. (2019/2018م). اللبس والغريبة، فينومينولوجيا الجسد عند جاك دريدا. أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان/الجزائر.
3. سعاد شريف. (2023م). سلطة النص الغائب. ط1، برج بوعريش/ الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.

4. عبد القادر فيدوح. (بلا تاريخ). شعرية القص. شعرية القص. (بلا طبعة)، (بلا تاريخ)، منتديات مجلة الابتسامة.
5. محمد الطيبي. (2001م). اختراع التاريخ في اختراع القفار بحث في أنثروبولوجية الأدب. مجلة اللغة والأدب، جامعة وهران، العدد 15، (من 130/168).
6. محمد مفلح. (2015م). شبح الكليدوني. ط1، الجزائر: دار المنتهى.
7. يوسف عطية. (بلا تاريخ). تيمة الطفل وفينوميتولوجيا الاسم في رواية الأسماء المتغيرة للروائي الموريطاني. مجلة الآداب، جامعة محمد بوضياف، العدد 14، (من 138/168).

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

روابع نور الهدى ، سعدلي سليم، (2024) المغيّب في خطاب المنفى التاريخي رواية "شبح الكليدوني" للأديب محمد مفلح أنموذجا ، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 15 (العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 94-107.